

مقابلة بين كتاب الفجار وكتاب الأبرار في سورة المطففين (دراسة لغوية تفسيرية)

محمد فردوس

muhammad.firdaus@uinjkt.ac.id

Dosen Fakultas Dakwah dan Ilmu Komunikasi
UIN Syarif Hidayatullah Jakarta

ملخص البحث

أعددت هذه الدراسة الرغبة في الكشف عن أسلوب الدراسة في علم البديع وتطبيقاتها في سورة المطففين. تهدف الدراسة الانكشاف على محتويات السورة التي تناولت فيها الوعد الشديد على المطففين، وجرت على أسلوب المقابلة بين كتاب الفجار وكتاب الأبرار، والمقصود من جزاء الله تعالى للأشقياء الفجار وسوء عاقبتهم، وإكرام الله تعالى للأبرار وحسن عاقبتهم، واختتمت السورة باستهزاء وسخرية الفجار بالمؤمنين في الدنيا، واستهزاء وسخرية المؤمنين بالكافرين في الآخرة. وأهمية هذا البحث التعرف على صور وأسلوب المقابلة الموجودة في سورة المطففين بين كتاب الفجار وكتاب الأبرار. والمنهج الذي سلك عليه الباحث هو المنهج الاستقرائي والموضوعي، ويتم ذلك من خلال تتبع أقول المفسرين لهذه السورة، وما لاحظ عليها المفسرون من الفن البلاغي وهو المقابلة والأسرار القرآنية التي تثبت بها، وذلك مع الاستعانة بالمراجع الحديثة الأخرى من كتب التفسير والأحاديث واللغة وغيرها. ويتكون هذا البحث من ستة مطالب، المطلب الأول : اسم السورة، موقعها وعدد آياتها ومكانة نزولها وأسباب نزولها ومقاصدها. المطلب الثاني : الوعد الشديد للمطففين من الآية 1 إلى الآية 5. المطلب الثالث : الفجار وأوصافهم وجزاء الله لهم من الآية 7 إلى الآية 17. المطلب الرابع : الأبرار وإكرام الله تعالى لهم من الآية 18 إلى الآية 28. المطلب الخامس : مقابلة سخرية المجرمين في الدنيا وسخرية المؤمنين في الآخرة، من الآية 29 إلى الآية 36. المطلب السادس : الخاتمة.

الكلمات الأساسية : المقابلة، سورة المطففين، كتاب الفجار، وكتاب الأبرار

المطلب الأول: اسم السورة، موقعها وعدد آياتها ومكانة وأسباب نزولها ومقاصدها

سميت هذه السورة بسورة ويل للمطفّفين، وكذلك ترجمها البخاري فيصحيحه. (صحيح البخاري. (1422هـ). ج6. ص167). وقد سميت بسورة المطفّفين اختصاراً كما قاله الترمذي في جامع. (الكوكب الدري على جامع الترمذي. (1395هـ). ج4. ص313). وقد سميت بالتطفيف، فمراده: البُخُس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم. ولهذا فسر تعالى المطفّفين الذين وعدهم بالخسار والهلاك.

وعدد آيات سورة المطفّفين ست والثلاثون آية، مائة وتسع وتسعون كلمة، سبعمائة وثمانون حرفاً. وترتيبها في المصحف الثالث والثمانون في الجزء الثلاثين.

ومن حيث مكانة نزولها فقد اختلف العلماء، قيل: إنها مكية، وهذا ما اختاره عبد الله بن مسعود والضحاك ومقاتل. (الجامع لأحكام القرآن. (1423هـ/2003م). ج19. ص250)؛ لأنها نزلت بين مكة والمدينة، والعبرة في المكي ما نزلت قبل الهجرة، وإن نزل بغير مكة، وكل سورة ذكرت فيها الأساطير فهي مكية، ﴿إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة المطفّفين: 13]؛ ولأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث. (المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية. (1427هـ-2006م). ج2. ص1084). وقد ذكره السيوطي على أنها آخر سورة مكية، نزلت على الرسول ﷺ قبل الهجرة. (الإتقان في علوم القرآن. (1414هـ-1993م). ج1. ص44). وقيل: أنها مدنية كما قالها أكثرية أئمة المفسرين وأهل العلم منهم الطبري والبغوي وابن العربي والقرطبي وابن كثير وابن عاشور، ورجحه الذهبي في المذهب. (المهذب في اختصار السنن الكبير. (1422هـ-2001م). ج4. ص2160). وستدلوا بحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [سورة المطفّفين: 1] فحسنوا الكيل بعد ذلك. (السنن الكبرى. (1421هـ/2001م). ج10. ص327). قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا. (الجامع لأحكام القرآن. المرجع السابق). وذكره الزمخشري في تفسيره، كانت الآية نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، واسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر؛ قاله أبو هريرة رضي الله عنه. (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري. (1414هـ). ج4. ص171).

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة في مهاجرته ﷺ إلى المدينة فاستتمت بالمدينة، وهذا قول الكلبي وجابر بن عبد الله. (الجامع لأحكام القرآن. المرجع السابق). والألوسى يجمع كل هذه الأقوال في تفسيره بشيء من التفصيل دون أن يرجح بينها. (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. (د.س). ج16. ص119).

أقول العلماء في أحكام المكي والمدني أنه منقسم إلى ثلاثة مصطلحات؛ المصطلح الأول: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة. والمدني ما نزل بالمدينة. المصطلح الثاني: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة. والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. والمصطلح الثالث:

فما نزل قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فهو مكّي، وإن نزل بغير مكة. والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة، وهو أشهر الاصطلاحات الثلاثة كما قال السيوطي في إتقانه. (الإتقان في علوم القرآن. (1414هـ-1993م). ج1. ص44).

ولكن يبدو أن هذا المصطلح مع اشتهاؤه، لم يسلم أيضا من النقد، فبعض علماء الأزاهرة المعاصرين المعنّين بالدراسات القرآنية، اعتبروه غير جامع ولا حاصر ولا مطرد؛ لكونه لا ينظر إلا إلى العنصر الزماني، مع الإغفال عن العنصر المكاني، بل اعتبروه خطبا علميا، فقد قال القيعي: "وهذا الاصطلاح الثالث، وإن استحسنه بعض العلماء، لكن يؤخذ عليه : تقييد النزول بالمكي والمدني فقط. ولو قيل: أماكن النزول، لكان أجدر بالقبول كبيت المقدس، وتبوك، ونحوهما مما لا يدخل في مكة ولا في المدينة. وكذا لو قيل: أزمنة النزول، أو أحوال المخاطبين ومراعاتها، لكان أجدر بالقبول من حصر النزول بين مكّي ومدني". (دراسات في علوم القرآن ومناهج المفسرين. (1408هـ/1987م). ص37).

ومن أعظم المقاصد خلال هذه السورة، أنها تبين قواعد النظام الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، تخصص مصير الأشقياء الفجار بسبب تطفيفهم في الكيل والميزان، وتكذيبهم بيوم الجزاء والحساب والقرآن، وهم أوصفوه بأنه أكاذيب الأولين، توعدهم الله تعالى بسوء الحساب وإصلاء الجحيم. وكذلك تبرز منزلة الأبرار في جنة يتنعمون، وما أعد لهم من الخيرات.

فأوضحت هذه السورة بيانا مهّما منها : الأول: دعاء بالهلاك على المطففين. والثاني: جزاء الله تعالى للأشقياء الفجار سوء عاقبتهم. والثالث: الأبرار وإكرام الله تعالى لهم وحسن عاقبتهم. والرابع: استهزاء الفجار بالمؤمنين. والخامس: يوم القيامة كافأ من المؤمنين على صبرهم فصاروا يضحكون على الكفار.

المطلب الثاني: الوعد الشديد للمطففين من الآية 1 إلى الآية 5.

قال تعالى : □ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٦ □

سورة المطففين تشير إشارة قطعية على البيئة العملية التي كانت تقع عند العرب في معاملتهم التجارية، وكانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم توقظ القلوب الغافلة، وتحرك العواطف، والآية الكريمة تواجه الحياة الإنسانية كلها، لا تنحصر بالأجناس والقبائل والأزمنة المتبادلة. فالرسالة المحمدية هي الرسالة السماوية لمصالح أهل الأرض، الرسالة التي تتضمن المنهاج جديد شامل محيط.

وفي الآية الأولى تهدد المطففين بالخسار والهلاك. والمراد بالتطفيف هو البخس في المكيال والميزان. (تفسير القرآن العظيم. (1420هـ/1999م)). والموضوعية الأولى تبدء بإعلان الحرب على من ادعى بالتطفيف كما ذكر أعلاه، هم الذين طلبوا بالازدياد إذا قضى من الناس، وينتقصوا إذا قضوا على الناس.

والآية الكريمة تستخدم كلمة الظن، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ وليس المراد الأمر بغير يقين، بل الإدراك مع اليقين، وذلك كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 46] أي: الذين يستيقنون لقاء ربهم ويجازيهم بأعمالهم. (الجامع لأحكام القرآن، 1423هـ/2003م). ج19. ص250. ومن لا ينصف في المكيال والميزان، ويخس أموال الناس بهما، دليل على عدم إيمانه باليوم الآخر، مع استيقانه به، وأنه سيقوم بين يدي الله تعالى، ويحاسب على ما فعله في الدنيا، فإن كان خيرا يجرى به ويضعف، وإن كان شرا فله الندامة لا يذهب به الندم.

هذه الآية تأتي تصدية على شأن المطففين وتواجه إنكارهم بيوم الميعاد، وهم يتصرفون على ما شاؤوا، ولا يحاسبون أنفسهم في حياة الدنيا قبل أن يحاسب عليهم الأعمال في الآخرة، وعدم إيقانهم بيوم يجمع فيه الخلق بين يدي رب العالمين، ويتم فيه الحساب والجزاء أمام رب العزة.

وفي هذا المقطع سماهم المطففين، وقد ذكر أعلاه اختلاف المفسرين حول نزول هذه السورة، مالا يخلو عن الدروس المستفادة فيها. وإذا نظرنا إلى ما ذهب إليه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها نزلت بمكة، عرف من حيث أسلوبها ذكر أساطير الأولين فيها، وغرضها تسعى إلى إعداد شخصية متكاملة ذوي الأخلاق المتينة. وهي سورة تعطي قواعد المعاملات بصفاتها العامة التي تنظم سلوكيات الإنسان في تعامله مع الله تعالى، ومع البيئة التي يعيش فيها، وهي القواعد التي تعين المرء على أن يتحلى بالأخلاق الكريمة. وأما أكثرية أئمة المفسرين كالطبري والبغوي وابن العربي الذين قالوا أنها مدنية، فالدروس المستفادة من هذا الاتجاه هي أن في السورة المدنية تعرض لحياة المجتمع من ناحية كلها تحت ظل الدولة الإسلامية التي تنفذ قانونها وفق المنهج الإسلامي، فأهل المدينة لما كانوا أخبت الناس كيلاً، فصار من أحسنهم الكيل والميزان. السور المدنية تبسط المنهج الشامل للحياة البشرية، المنهاج الأخلاقي المستفاد من أصول العقيدة والشريعة.

المطلب الثالث: الفجار وأوصافهم وجزاء الله لهم من الآية 7 إلى الآية 17.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۖ وَمَا أَدرَاكَ مَا سِجِّينَ ۚ ٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۚ ٩ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ ١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيُّومَ الدِّينِ ۚ ١١ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ ۚ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۚ ١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ ١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ ١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَّحْجُوبُونَ ۚ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمَ ۚ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ ۚ تَكْذِبُونَ ۚ ١٧ ۝﴾

من بيان الإعجاز القرآني وجود تناسب بين الآيات في السورة الواحدة لغرض الوصول إلى الفهم الدقيق لمقاصد القرآن الكريم. وقد ثبت العلوم اللغوية في هذه السورة بصورتها المفصلة، إن الله تعالى بعد ما أعلن على المطففين بالحرب، مع علمهم أن ليس لهم ناصر ولا والي إلا الله تعالى، ولكنهم ماضون في التطفيف، كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون. المقابلة لغة المواجهة والمعارضة، أي: اجتمعت بين شيئين متوافقين في المعنى أو أكثر، وبين ضديهما، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. (الإيضاح في علوم البلاغة. (1998م). ص323).

هذه السورة توضح المقابلة في كثير من المواضع، وهي من المحسنات اللغوية التي ابتدعتها القرآن الكريم بغايتها بهرت البيان الموصول إلى المعنى المراد. المقابلة نوع من أنواع علم البديع، اكتشف من خلاله محسنات معنوية ولفظية، تميزت بهما اللغة العربية، وتلك المحسنات اشتملت من جميع نواحيها الذاتية كما شرح بها البلاغيون في علم البيان والمعاني، والجماليات العرضية التي تأتي بها بيانها في علم البديع. موضع المقابلة في هذا المقطع يعرض الفجار، والموصفين به وجزاءهم يوم القيامة، ثم يعرض في المقطع يليه الأبرار وجزاؤهم. والمقابلة في هذه السورة تتم حقيقتي الفجار والأبرار، وحالتهم، ونهايتهم.

في المقطع الثاني سمى الله المطففين بالفجار، إذ يدخلهم في زمرة الفجار، وهم بهؤلاء متصفون بصفة واحدة، المكذبون بيوم البعث، وهم يعذبون في الدنيا قبل الآخرة، بحجاب قلوبهم عن آيات ربهم العظيمة، حجب عما غشاها من كثرة ارتكاب الذنوب والكبائر، ثم لداخلو الجحيم مع الترديل والمحقرن المرذلون، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَدْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِّلَ مِنْهَا قَلْبُهُ فَإِنْ عَادَ رَأَتْ حَتَّى يَغْلُقَ بِهَا قَلْبُهُ)) فَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). (السنن الكبرى للبيهقي. (1424هـ/2003م). باب : جُمَاعُ أَبْوَابٍ مَنْ تَجُورُ شَهَادَتُهُ، وَمَنْ لَا تَجُورُ مِنَ الْأَخْزَارِ الْبَالِغِينَ الْعَاقِلِينَ الْمُسْلِمِينَ. رقم الحديث : 20763. ج10. ص316).

وقد سمى الله تعالى المطففين في المقطع الأول، ثم يسميهم الفجار في المقطع الثاني لتجاوزهم في المعاصي والآثام، ولو لحظنا على ما اختاره عبد الله بن مسعود مكان نزول هذه السورة، لوجدنا عدة دلالات مهمة، منها من ناحية الأسلوب التي استخدمت هذه السورة المكية في ذاتها مستحقة للانتباه، فإن آياتها صارخة في تواجه كبار العرب الذين تعودوا بالتطيف في ممارسة الأعمال التجارية، مع أنهم أصحاب الأموال الكثيرة، يرحلون عن طريق القوافل إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء متجرون. لذلك، أعلن الله تعالى الحرب على المطففين الفجار، ويهددهم بالويل وهو الوادي الذي يسيل صديد أهل جهنم كما ذكره الطبري في تفسيره. (تفسير الطبري. (٢٢٤١هـ/٢٠٠١م). ج24. ص185). بجاههم، وقوة مكانتهم الاجتماعية، وكثرة أموالهم، واتساع حركة تجارتهم من سبب ازدرائهم واحتقارهم على المستضعفين منهم، بقهر الناس لأن يستوفون المكيال والميزان عليهم قسرا، ويأخذون حقهم بالوافي والزائد، □ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ □ إنما أبدل "على" بـ"من" للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم. (تفسير البيضاوي. (1418هـ). ج5. ص294). ولكن أنهم إذا كالوا وزنوا للناس خلاف ذلك، أي: ينقصون حق الناس، دون يستطيع هؤلاء المستضعفون منهم نزاهة القضاء ولا استيفاء حق.

وذلك تأثرت بسلطان رياستهم وجاههم القبلي، فالاستخفاف والإهانة على الخلق يستحق إعلان الحرب عليهم. والآية تشير إلى أن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافيا من غير

نقص، بل مجرد الأخذ الوافي الوافر حسبما إرادة المطففين بأي وجه يتيسر من وجوه الحيل.
(تفسير الألوسي. (1415هـ). ج15. ص274).

وعند قوله تعالى : □ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ٣ □ حذف المضاف أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم أي: للناس، يقال: وَزَنْتُكَ حَقًّا، وَكَلْتُكَ طَعَامَكَ أي : وَزَنْتُ لَكَ، وَكَلْتُ لَكَ، كما يقال : نَصَحْتُكَ، وَنَصَحْتُ لَكَ، وَشَكَرْتُكَ، وَشَكَرْتُ لَكَ، وَكَتَبْتُكَ وَكَتَبْتُ لَكَ. والمقصود بحذف الجر أي: حرف اللام في هذه الآية هو اختلاف حالهم في الأخذ والدفع، لا من باب التوكيد بين اتصال الجر أو انفصاله. وهذا من باب تقابل الجملة بالجملة، فظاهر الآية تبين على أن المطففين إذا هم يشترون شيئا من الناس يحرصون على أن يأخذوا حقوقهم من هؤلاء الناس المستضعفين كاملة غير منقوصة، وإذا باعوا لهم عن طريق الكيل والوزن ينقصون فيهما.

ووجه التقابل في هذا النوع إنما هو من جهة زمن الفعل، □ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ٣ □ والجملة في هذه الآية الجملة الماضية أي: يُسْتَفَادُ مِنْ تَوْجِيهِ ابْنِ عَاشُورٍ لِدَلَالَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ أَنَّهُ تَحَقَّقَ الْوُقُوعُ، وكذلك جاءت للدلالة على الاستقبال. (التحرير والتنوير. (1984م). ج29. ص49). فالمشاهد الظالمة متكررة في أجيال ومواطن شتى، وسورة المطففين تصور الأمر على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور. (في ظلال القرآن. (1423هـ/2003م). ج6. ص3860).

وصورت الآيات جزاء الأشقياء الفجار يوم القيامة حيث يعذبون في النار مع الزجر والتهديد، قال تعالى : □ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ ٨ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٩ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ □؛ ذكر الجوهري : كلمة سجين على وزن فعيل، سجن أي : الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والضيق في جهنم. وقيل : بمعنى شديد كما يقول : ضرب سجين. وقال ابن عباس : دواوين الفجار. (الصاح. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ج5. ص2133).

أما قوله تعالى : □ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٩ □؛ اختلف المفسرون على أنه تفسير للسجين، حيث قال الجمهور أنها تفسير لآية قبلها، وظاهر الآية أن سجيناً هو كتاب، ولذلك أبدل منه كِتَابٌ مَرْقُومٌ. وكلمة سجين بناء المبالغة، وهي صفة لموضع المحذوف، كمال ابن مقبل :

وَرَفَقَةً يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينًا

أي : ضرباً سجيناً. (البحر المحيط (1420هـ). ج10. ص427). وقيل: أنه اسم علم منقول من وصف. وقيل : إنها ليست تفسيراً للسجين، بل التقدير: كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار مرقوم وموقع، أي: كتاب مسطور بين الكتابة أو معلّم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحي حتى يجازوا به. فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان. (الكشاف. (1420هـ). ج4. ص721).

ثم اختتمت بقوله تعالى : □ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) □؛ لأنه في حق الكفار المجرمين، وموقع ديوانهم في سجين، لا يزداد فيه ولا يتقص منه، وهو محل إبليس وجنوده. (تفسير البغوي. (1420هـ). ج5. ص226).

المطلب الرابع: الأبرار وإكرام الله تعالى لهم من الآية 18 إلى الآية 28.

قال تعالى: □ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٥ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ٢٨ □

بعد ما ذكر موضوع أوصاف الفجار جزاؤهم يوم القيامة، يعرض صفحة الأخرى موضوع كتاب الأبرار، وإكرام الله تعالى لهم، وسمي هذا الأسلوب تقابل الموضوع بموضوع قبله، وذلك عند قوله تعالى: □ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ ٧ □ و □ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ □؛ حيث قابل بين حال الفجار وحال الأبرار، وبين سجين وعليين. أما كلمة "كلا" جاءت زجرا وردعا عما فعل الفجار من التطفيف والتكذيب وإنكارهم بيوم البعث والحساب. وأما لحال الأبرار جاءت كلمة "كلا" مؤكدا وحزما في الجزاء والإكرام لهم، أو الغفلة عن البعث والحساب بالنسبة للمؤمن، وفي الوقت ذاته زجرا ومنعا عما ذكر قبله من التكذيب والإنكار من قبل الأشقياء الفجار. (المنير. (١١/١٤١هـ/١٩٩١م). ج30. ص118).

ووجه التقابل إنما هو من جهة الموضوع بين إكرام تعالى للأبرار □ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ □ وكتاب الفجار جزاؤهم يوم القيامة كما عرضنا أعلاه. وفي موضع كتاب الأبرار، تضاف الآيات إلى حضور الملائكة وحفاظهم على كتابهم إذا صعد به إلى عليين، ويشهدون على ما فيه يوم القيامة. كتاب الأبرار مسطور معلم بعلامة كما ذكر في كتاب الفجار. قيل: إنه مكان عال في الجنة. (تفسير المنير. (١١/١٤١هـ/١٩٩١م). ج30. ص125). فهذا تقرير رباني يلقي ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار.

وكذلك التقابل بين مصير الفجار بعد الحساب يوم القيامة في قوله تعالى: □ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ١٧ □ بعد حجب قلوب الفجار وطبعت عن الإيمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم، بسبب كثرة الذنوب والخطايا التي منعت نفاذ الحق والخير والنور إليها، بل أسوأها حجب قلوب الفجار عن الإحساس بربها في الدنيا الفانية، فأعماها عن رؤية الحقيقة. فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرّموا النظر إلى وجه الله تعالى، □ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ١٥ □ تراكت السيئات عليهم، إن عقوبتهم في الآخرة أشد وأكبر. وبين مصير الأبرار في قوله تعالى: □ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٥ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ٢٨ □؛ هذا تقرير رباني للأبرار، فإنهم في موضع التكريم على ما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعمة، يعرف ذلك من بشاشة وجوههم من النور والحسن والبياض، وسرور قلوبهم، وهم ينظرون حيث يشاؤون، أدركهم كل نعم لا تخطر قلوب بشر، فالصور لنعم الجنة فعلمها عند الله تعالى.

المطلب الخامس: مقابلة المجرمين في الدنيا وسخرية المؤمنين في الآخرة، من الآية 29 إلى الآية 36.

قال تعالى : □ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ٣٢ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ٣ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَتَنَزَّلُونَ ٣٥ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ □ ٣٦

تعريف المقابلة: أصل المقابلة من قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالاً إذا عارضه، فإذا ضمنت شيئاً إلى شيء، تقول: قابلته به. والمقابلة: المواجهة، وهي ضد التدابر. المقابلة موضوع الطباق - هذا أغلب آراء النقاد البلاغيين-، إلا أن الطباق هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، أما المقابلة طبق متعدد عناصر الفريقين المتقابلين، وفيها يؤتى بمعنيين فأكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب. (البلاغة العربية. ١٦/١٤١٦هـ/١٩٩٦م). ج2. ص381). كما بينه ابن رشيق القيرواني الأزدي : "أصل المقابلة ترتيب الكلام على ما يجب؛ فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه". (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٠١/١٤٠١هـ/١٩٨١م). ج2. ص15).

كما ذكر أعلاه أن المقابلة أن تأتي الكلمة بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها على سبيل الترتيب. ففي هذه السورة طبق هذا الفن اللغوي في مواضعها حيث تعدد عناصر المقابلة وتأتي بمعنيين فأكثر. وعرف الزركشي حقيقة المقابلة هي : ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويُخالفه في بعضها، وهي من باب [المُفَاعَلَة] هي قريبة من الطباق، والفرق بينهما من وجهين :

الأول: أَنَّ الطَّبَاقَ لا يكون إلا بين الضدين غالباً والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالباً.
الثاني: لا يكون الطباق إلا بالأضداد والمقابلة بالأضداد وغيرها. (البرهان في علوم القرآن. ج3. ص455).

ففي هذا المطلب عرض الباحث مقابلة سخرية المجرمين في الدنيا عند قوله تعالى : □ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ٣٢ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ٣ □؛ في هذا المقطع أن يكون المقابل مثلاً للمقابل به، حيث جاءت مقابلة الموضوع بالموضوع، ونظرا لسياق الآيات أطال الله تعالى في ذكر نعم وجزاء للأبرار، وكانت الآيات تهيئاً ومبسطة للحديث عما أصابوا من إيذاء الفجار في الأرض، واستهزائهم وسخرياتهم؛ وذلك عند قوله تعالى: □ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ □، فهذه المشاهد التي يرسمها القرآن الكريم من سوء أدب الكفار مع المؤمنين، وكانت معاملتهم على أساس نفاق وخيانة، والتطاول على حقوقهم، ووصفهم بأنهم المنحرفين عن الحق؛ بل الكفار هم الضالون زلّ طريقهم عن الحق ولم يهتد إليه. هذه المشاهد الظالمة متكررة في أجيال

ومواطن شتى، وسورة المطففين تصور الأمر على أن تطيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة -مع مداولة الأيام- في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور.

الكفار المجرمون يضحكون من الذين آمنوا بالله تعالى واليوم الآخر، إما لفقرهم وضعفهم عن رد المظلمة والضرر والمكاره، وكل مما يثير اشمئزاز الكافرين والمجرمين، ومن أسوء ما فعلوا أنهم متشايعون للخبر الكذب على المؤمنين ومن تبعهم من الصالحين المتقين بأنهم متبعوا طيش الطائشين، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم ودُعابتهم المردولة، ثم يضحكون ضحك اللئيم والوضيع، مما يصيب المؤمنين، وهم صابرون مُتَحَلِّون بأخلاق المؤمنين.

وهذا من بيان إعجاز القرآن الكريم حيث جاءت بالأساليب البديعة والمحسنات اللفظية والمعنوية، انسجمت في تراكيبه. إن الحياة الدنيوية العاجلة الزائلة، وإن إيذاء المجرمين على المؤمنين محدود وقته، ولا يساوي كل سيئات فعلوها بعقوبتها يوم القيامة، سيخاطبون بها في الآخرة حساب أعمالهم، وهم سيرون نعيم الأبرار التي لا تحدها تصورات البشر، وبهم سيذكر المجرمون ما كانوا يفعلون. ثم اختتمت السورة باستهزاء المؤمنين على الكافرين حين يرونهم أذلاء المغوليين في النار، ويضحكون عليهم كما كانوا ضاحكين في الدنيا على المؤمنين حاقرون مستهزؤون؛ قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ﴾ ٣٦ والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم.

المطلب السادس : الخاتمة.

بعد استعراض مقابلة بين كتاب الفجار وكتاب الأبرار في سورة المطففين، توصل الباحث إلى جملة من النتائج، يمكن عرضها كما يلي:

الأول : الاهتمام بالتحقيقات اللغوية والبلاغية والاعتناء بها تفتح أمام طلبة العلم أوسع المجالات لفهم القرآن الكريم.

الثاني : علم البديع من أهم العلوم اللغوية، لا يتوصل الطالب إلى استعباده الكامل إلا بعد إتمام فهمه بعلم المعاني والبيان، فإن علم المعاني والبيان يحيط بالمحسنات اللغوية من جميع نواحيها الذاتية، وأما الجماليات العرضية تأتي بها بيانها في علم البديع.

الثالث : سورة المطففين تناولت فيها الوعد الشديد على المطففين، وجرت على أسلوب المقابلة بين كتاب الفجار وكتاب الأبرار، والمقصود من جزاء الله تعالى للأشقياء الفجار وسوء عاقبتهم، وإكرام الله تعالى للأبرار وحسن عاقبتهم، ثم اختتمت السورة باستهزاء وسخرية الفجار بالمؤمنين في الدنيا، واستهزاء وسخرية المؤمنين بالكافرين في الآخرة.

وأهم التوصيات هي :

الأولى : من أجل تحقيق الأهداف، كان واجب على طلاب العلم الوقوف على الدراسات القرآنية من مختلف زواياها العلمية، تفسيره، وقراءاته، وبلاغته وجميع علومه التي تبرز من خلالها الإعجاز القرآني.

الثانية : إحياء التراث الإسلامي ضمن برامج الدروس الإضافية واجبا؛ لأن الاختصار على دراسة التراث الإسلامي في الفصول لا تلبي حاجات الطلبة لاستيعاب المسائل العلمية، فهي على هذه الصورة من مكملات الأولويات الساعية إلى تحقيق الأهداف المنشودة.

وفي الختام أقول: إن هذا البحث في غاية التواضع، وهي محاولة تعبر عن جهد صاحبه المقل، فلم يكن لي فيه رغبة إلا المشاركة في ميدان البحث العلمي، في سبيل التعرض لنفحات الله تعالى عن طريق خدمة هذا الدستور العظيم، وإن بذلت ما بوسع، ففي هذا العمل قصور وتقصير ينبئ عن شيمة الإنسان وطبيعته التي لا تتفك عن الخطأ والنسيان؛ إذ الكمال المطلق لا يكون إلا لله تعالى وحده.

ولكن ما أرجوه من القراء تدارك النقص وجبر الخلل، وأفضل ما استشهد به في هذا المقام قول القائل:

وإن تجد عيباً فسدّ الخلا * قد جل من لا عيب فيه وعلا

وأرجو من الله جل وعلا أن يتقبل هذا العمل لوجهه الكريم. اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا المزيد من العلم النافع، والعمل الصالح. ربنا اغفر لنا ولوالدينا ولأساتذتنا ولمشايخنا وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. والحمد لله على التمام، والشكر له على الإنعام، وأسأله تعالى حسن الختام، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد خير الأنام، ما تعاقبت الليالي والأيام، وما شع نور وتبدد ظلام.

المراجع والمصادر

- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله. (1422هـ). صحيح البخاري. محمد زهير بن ناصر الناصر (محقق). دار طوق النجاة. ط1.
- الكنكوهي، رشيد أحمد. (1395هـ). الكوكب الدري على جامع الترمذي. محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي (محقق). ندوة العلماء الهند. د.ط.
- المزيني، خالد بن سليمان. (1427هـ/2006م). المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية. دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية. ط1.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر. (1422هـ/2001م). جامع البيان في تأويل القرآن. عبد الله بن عبد المحسن التركي (محقق). دار هجر. (د.م). ط1.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين. (1423هـ/2003م). الجامع لأحكام القرآن. هشام سمير البخاري (محقق). الرياض-المملكة العربية السعودية : دار عالم الكتب. د.ط.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. (1421هـ/2001م). السنن الكبرى. حسن عبد المنعم شلبي (محقق). بيروت: مؤسسة الرسالة. ط1.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردى الخراساني، أبو بكر. (1424هـ/2003م). السنن الكبرى. محمد عبد القادر عطا (محقق). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية. ط3.
- الزليعي، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد. (1414هـ). تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري. دار ابن خزيمة-الرياض. عبد الله بن عبد الرحمن السعد (محقق). ط1.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الشافعي. (1422هـ/2001م). المذهب في اختصار السنن الكبير. دار الوطن. (د.م). ط1.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. (1414هـ/1993م). الإتيقان في علوم القرآن. مصطفى ديب البغا (محقق). دار ابن كثير-دمشق. ط2.
- الألوسي، العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي. (د.ت.). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. محمد حسين العرب (محقق). دار الفكر-بيروت لبنان. (د.ط.).
- القيعي، محمد عبد المنعم المصري الأزهرى. (1408هـ-1987م). دراسات في علوم القرآن ومناهج المفسرين. شركة سعيد رأفت-القاهرة. ط2.
- القزويني، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر. (1998م). الإيضاح في علوم البلاغة. دار إحياء العلوم - بيروت. ط1.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. (1420هـ/1999م). تفسير القرآن العظيم. سامي بن محمد سلامة (محقق). دار طيبة. ط2.
- البيضاوي، ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي (1418هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي. محمد عبد الرحمن المرعشلي (محقق). بيروت-لبنان: دار إحياء التراث العربي. ط1.
- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. (1415هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. علي عبد الباري عطية (محقق). دار الكتب العلمية-بيروت. ط1.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. (1420هـ). تفسير البحر المحيط. صدقي محمد جميل (محقق). لبنان-بيروت: دار الفكر. ط1.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي. (1407هـ). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت-لبنان: دار الكتب العربي. ط4.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (1420هـ). معالم التنزيل في تفسير القرآن. عبد الرزاق المهدي (محقق). بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط1.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. (1407هـ/1987م). أحمد عبد الغفور عطار (محقق). بيروت-لبنان: دار العلم للملايين. ط4.
- زحيلي، وهبة. (1411هـ/1991م). التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دار الفكر. دمشق-سورية. ط1.
- حَبَّكَّة، عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي. (1416هـ/1996م). البلاغة العربية. بيروت: دار القلم، دمشق، الدار الشامية. ط1.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر. (1376هـ/1957م). البرهان في علوم القرآن. محمد أبو الفضل إبراهيم (محقق). دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه. د.م. ط1.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي. (1984م). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر - تونس. د.ط.
- سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي. (1423هـ-2003م). في ظلال القرآن. دار الشروق-القاهرة. ط32.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي. (1401هـ/1981م). العمدة في محاسن الشعر وآدابها. محمد محيي الدين عبد الحميد (محقق). دار الجيل. د.م. ط5.